التفسير العلمي للقرآن الكريم
وموقف العلماء منه

للدكتور

محمد السيد بنداري

الأستاذ المساعد بالكلية

عناصـــر البحـث :

١ ـ مقدمة موجزة عن علم التفسير حتى مجئ مرحلة التفسير العلمى.

٢ ـ المقصود بالتفسير العلمى.

٣ ـ موقف العلماء منه . وينقسم إلى : ـ

أ ـ موقف القائلين به .

ب ـ موقف المانعين له .

جـ ـ الرأى الوسط فى القضية .

د ـ الاختيار والترجيح .

●●●

أولا : مقدمة موجزة عن علم التفسير حتى مجئ مرحلة التفسير العلمى : -

علم التفسير أشرف العلوم وأرفعها قدرا، وذلك راجع إلى موضوعه، والغرض منه، وشدة الحاجة إليه:

أما من جهة الموضوع : فلأن موضوعه كتاب الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه.

أما من جهة الغرض: فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى،والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا تفنى.

وأما من جهة شدة الحاجة إليه: فلأن كل كمال دينى أو دنيوى عاجلى أو آجلى مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهى متوقفة على كتاب الله تعالى[1].

من أجل ذلك حرصت الأمة من أول الأمر على حفظ كتاب الله والتعرف على ما فيه من أحكام وآداب. فكان الصحابة الكرام يتلقونه من «فى» رسول الله صلى الله عليه وسلم بعناية فائقة، ويتوفرون على مدارسته لمعرفة أحكامه وأمره ونهيه، كما يقول ابن مسعود رضى الله عنه: ماكنا نتجاوز عشر آيات حتى نعرف حكمها وأمرها ونهيها[2]. وكانوا إذا أشكل عليهم فهم شئ منه سألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى وكل الله تعالى إليه مهمة التبيان، وآتاه القرآن ومثله معه. كما فى قوله سبحانه:

« وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ »[3].

(١) راجع الإتقان جـ ٢ ص ١٧٥

(٢) سبل السلام جـ ٢ ص ٢٧ ط جامعة الإمام

(٣) النحل الآية ٤٤

وكما فى حديث أبى داود بسنده: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه.. الحديث.

وهذه أولى مراحل التفسير، وكانت على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، ثم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربّه، وبتطاول المدة زادت الحاجة إلى التفسير أكثر مما كانت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان على الصحابة الذين شاهدوا الوحى أن يقوموا بسدّ هذه الحاجة بما علموه من الرسول صلى الله عليه وسلم،وبما فهموه من القرآن ومن لغة العرب. يقول الإمام ابن كثير:

«وإذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة،رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك،لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولِـمَـا لَهُم من الفهم التام، والعلم الصحيح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم»(٤).

وتلك هى المرحلة الثانية من مراحل التفسير، وكانت على أيدى الصحابة عليهم الرضوان، وبانتهاء عصر الصحابة وحلول عصر التابعين، استمرت الحاجة فى ازدياد إلى تفسير القرآن العظيم، فتحمل جماعة من التابعين عبء هذا الأمر، وقامت مدارس فى الأمصار تمد المسلمين بما يحتاجون إليه من تفسير لكتاب ربّهم. فكانت فى مكة: مكونة من أصحاب ابن عباس مثل مجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة. وفى المدينة: كان أصحاب أُبيّ بن كعب مثل زيد ابن أسلم، وأبى العالية، وفى العراق: كان أصحاب ابن مسعود مثل علقمة بن قيس، والحسن البصرى.

وتلك مرحلة ثالثة من مراحل التفسير، كانت على أيدى التابعين بإحسان. ثم دون الحديث فى أواخر عهد بنى أمية، واستمر إلى أول عهد بنى العباس، وكان التفسير بابا من أبواب الحديث لم يفرد بالتأليف.

ثم جاءت مرحلة ثانية من مراحل التدوين، انفصل فيها التفسير عن الحديث، فاصبح علما قائما بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن حسب ترتيب المصحف. وكان ذلك على أيدى طائفة جليلة من العلماء منهم: ابن ماجه، وابن جرير الطبرى، وأبوبكر بن المنذر

(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣

النيسابورى، وأبوالشيخ ابن حبان، والحاكم، وابن مردويه، وغيرهم[٥]، وكلها كانت بالرواية، ولم يكن لأحد فيها غيرها إلا الإمام ابن جرير الطبرى فإنه يذكر الآراء ويوجهها ويرجح بعضها على بعض، ويذكر ما تمس إليه الحاجة من الإعراب. ويستنبط الأحكام.

ثم أعقب ذلك مرحلة اختصرت فيها الأسانيد وكثر فيها الخلط والدسّ دون تحرّ للصواب.

ثم جاء دور التفسير العقلى والفهم الشخصى. وامتزج التفسير بعلوم كثيرة كعلوم اللغة والكون، وعلم الكلام والفقه. ومن هذا الباب دخل التفسير العلمى الذى نحن بصدده، فقد أولع به جماعة من العلماء ومزجوه فى تفسيرهم كالرازى وغيره. كما سيأتى.

ثانيا : المقصود بالتفسير العلمى :

التفسير العلمى : لون من ألوان التفسير العقلى يحكِّم الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن الكريم، ويجتهد فى استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها، حتى ينتهى إلى أن القرآن يحتوى كل العلوم ما كان منها وما يكون، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية: الاعتقادية والعملية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدد ألوانها[٦].

ثالثا : موقف العلماء منه :

لقد لقى هذا النوع من التفسير قبولا عظيما عند جماعة من العلماء قديما وحديثا، ولقى معارضة قوية من جماعة أخرى قديما وحديثا أيضا. ودفعت كل جماعة منهما بما لديها من مبررات القبول، أو دوافع الرد، حتى جاءت جماعة ثالثة وأخذت بالطريق الوسط.

ولْنتعرف على وجهة نظر كل جماعة من المذكورين ونبدأ بالفريق الأول.

ا ـ وهم القائلون بالتفسير العلمى :

وكما سبق : فإن القائلين به، من الأقدمين ومن المحدثين، وليس كما يتوهم البعض أنه اتجاه معاصر فحسب.

(٥) راجع : التفسير والمفسرون د / محمد الذهبى جـ ١ ص ١٤١

(٦) التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ٤٧٤

فلقد قال به أبو حامد الغزالى، وكان أول من روج له فى كتابيه «إحياء علوم الدين» و «الجواهر». وذكر فى الإحياء آن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم[٧].

وبسط القول أكثر فى الجواهر فوضح أن جميع العلوم مأخوذة من القرآن كالطب والنجوم والتشريح والسحر.. الخ[٨].

وقال بذلك أيضا من الأقدمين الرازى،وأكثر منه فى تفسيره،حتى قيل: إنه حوى كل شئ إلا التفسير.[٩].

ومنهم ابن أبى الفضل المرسى، والسيوطى، وابن العربى وغيرهم، ويمكن القول: بأن هذا الاتجاه ظهر كأثر من آثار النهضة العلمية فى العصر العباسى وامتد إلى يومنا هذا.

نعم لقد كثر فى العصر الحديث، وهو الأكثر قبولا لدى المتأخرين، وظهرت كتب كثيرة تحمِّل القرآن كل علوم الأولين والآخرين بشكل تفصيلى:

مثل كتاب «كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية» وهو كتاب كبير الحجم يقع فى ثلاثة مجلدات كبار لمؤلفه محمد بن أحمد الإسكندرانى، وواضح من عنوان الكتاب وطوله مقدار ما حواه القرآن الكريم من علوم فى نظر المؤلف. ومثل كتاب الشيخ طنطاوى جوهرى المسمى بالجواهر والذى حمّل القرآن فيه مالا يحتمله من النظريات والعلوم على وجه التفصيل، إلى غير ذلك من المؤلفات.

ونوضح وجهة نظر هذا الفريق فنذكر أمثلة مما ذكره الأقدمون، ثم نقفى بأخرى مما ذكره المحدثون :

يقول السيوطى رحمه الله ذاكرا عن بعضهم: «مامن شئ إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهّمه الله تعالى، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة. من قوله فى سورة المنافقين:

---

(٧) انظر الإحياء جـ ٣ ص ١٣٥

(٨) انظر الجواهر ص ٣٢ وما بعدها

(٩) مناهج المفسرين د / عبدالعظيم الغباشى ص ٤٨

« وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا »(١٠)

فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده»(١١)

ومما قاله ابن أبى الفضل المرسى فى هذا الغرض: إن القرآن فيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها. كالخياطة فى قوله:

« وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ »(١٢)

والحدادة :

« ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ »(١٣) « وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ »(١٤)

والبناء فى آيات. والنجارة :

« ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا »(١٥).

والغزل:

« نَقَضَتْ غَزْلَهَا »(١٦) ، « كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا »(١٧).

والفلاحة:

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ »(١٨).

---

(١٠) المنافقون ـ الآية ١١

(١١) الإتقان جـ ٢ ص ١٢٦

(١٢) الأعراف الآية ٢٢

(١٣) الكهف الآية ٩٦

(١٤) سبأ الآية ١٠

(١٥) المؤمنون الآية ٢٧

(١٦) النحل الآية ٩٢

(١٧) العنكبوت الآية ٤١

(١٨) الواقعة آية ٦٣

إلى أن قال: وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى:

« مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ »(١٩) اهـ(٢٠)

ثم نأتى إلى العصر الحديث لنرى الكواكبى وهو واحد منهم يقرر فى «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» أن القرآن اشتمل على ما جدّ من نظريات علمية تؤيد إعجازه فيقول: لو أطلقنا للعلماء عنان التدقيق وحرية التأليف، كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا فى ألوف من آيات القرآن ألوف آيات الإعجاز... ثم يقول: ومثال ذلك: أن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا. والمدقق فى القرآن يجد أكثرها جاء التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه، وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال:

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ »(٢١).

وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة. والقرآن يقول:

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا »

إلى أن يقول: « كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »(٢٢).

وحققوا أن الأرض منفتقة من النظام الشمسى. والقرآن يقول:

«... أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا »(٢٣).

---

(١٩) الأنعام الآية ٣٨

(٢٠) نقلا عن الإتقان جـ ٢ ص ١٢٨

(٢١) فصلت آية ١١

(٢٢) يس الآيات ٣٣ ـ ٤٠

(٢٣) الأنبياء الآية ٣٠

وحققوا أن القمر منشق من الأرض، والقرآن يقول:

«أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ» (٢٤)

ويقول :

«ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾» (٢٥).

وحققوا أن طبقات الأرض سبع، والقرآن يقول:

«خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» (٢٦).

ثم يقول : وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات، والقرآن يقول:

«خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ» (٢٧)

ويقول:

«فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ» (٢٨)

ويقول :

«ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ» (٢٩)

ويقول :

«وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ» (٣٠).

---

(٢٤) الأنبياء الآية ٤٤

(٢٥) القمر ـ آية (١)

(٢٦) الطلاق الآية ١٢

(٢٧) يس الآية ٣٦

(٢٨) طه الآية ٥٣

(٢٩) الحج الآية ٥

(٣٠) الرعد الآية ٣

ثم قال : وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيرا من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون، تجديدا لإعجازه مادام الزمان، وما كرّ الجديدان[٣١].

وأما تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى فحدّث ولا حرج. فإن فيه كل ما يمكن أن يمتد إليه تفكير مفكر، من علم تحضير الأرواح وعلم البصامات وهلم جرا. ونكتفى بتلك الأمثلة من كلامهم. وننتقل إلى أدلتهم.

يعتمد اهل هذا المذهب جميعا على آية سورة الأنعام «ما فرطنا فى الكتاب من شئ» بالدرجة الأولى. ونجد الأقدمين منهم يذكرون إلى جانب هذه الآية آثارا أخرى كثيرة يدللون بها على صحة ما ذهبوا إليه. ونجد المحدثين يذكرون إلى جانبها مسوغات عقلية تسوغ لهم المضي فى هذا الطريق.

يقول السيوطى فى الإتقان: «النوع الخامس والستون فى العلوم المستنبطة من القرآن» قال تعالى: «ما فرطنا فى الكتاب من شئ». وقال: «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ». وقال صلى الله عليه وسلم: ستكون فتن، قيل فما المخرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، أخرجه الترمذى وغيره. وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن. فإن فيه خبر الأولين والآخرين. قال البيهقى: يعنى أصول العلم. إلى آخر ما ذكر[٣٢].

ويضيف المحدثون: بأنا إذا كنا نرى النصوص الدينية فى أوربا تؤلف لها المجامع المختلفة من ذوى الثقافات المتعددة. فيقومون بتوضيح ألغازها، وتفسير مضمونها كلّ على حسب اختصاصه. فهذا مؤرخ يستعرض ما جاء فى التوراة والإنجيل من قصص وأنباء، وذاك طبيب يستنبط من شتى النصوص ما يؤيده تقدم الطب، وتفوق التشريح، وذاك اجتماعى يستخلص مما بين يديه قواعد ثابتة لازدهار العمران وانقراضه، وارتفاع الأمم وانخفاضها حتى تضخمت المكتبة الدينية.

إذا كنا نرى ذلك ونقرؤه دارسين متفهمين، فإننا نرحب بكل جهد يبذل فى شرح الحقائق

(٣١) راجع طبائع الاستبداد من ص ٢٢ ـ ٢٥

(٣٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦

القرآنية وتفسيرها، تحت أضواء هادية من التاريخ والعلم والفلسفة. وكتاب الإسلام فى حاجة دائمة إلى عقول مستنيرة منصفة تستشف أسراره. وتؤيد إعجازه، ليتم نور الله فى الآفاق فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من آمن عن اقتناع.... ويقولون: إن القرآن لم ينزل للعرب فقط حتى يكون إعجازه بلاغيا يلمسه الفصحاء والبلغاء وحدهم، ويدركه من فهموا أسرار البيان العربى من ذكر وحذف، ووصل وفصل... الخ ولكنه إعجاز بشرى يشمل الناس جميعا. وهؤلاء العجم يستطيعون أن يفهموا نواحيه العلمية والنفسية والاجتماعيه. فلو اقتصر الإعجاز القرآنى على الوجه البلاغى أو التشريعى لفاتهم أن يدركوا أقباسا مضيئة من نور الله.

كما أن القرآن ليس خاصا بجيل واحد من الأجيال، فيحصر تفسيره فيما يروى عن الصحابة والسلف. ومن حق كل جيل أن يفهم منه ما يمتد إليه بحثه العلمى والنفسى والاجتماعى.

فإذا حاول أبناء القرن العشرين أن يجدوا فى بعض آياته بعضيداً لما سطعت به الفتوحات العلمية من حقائق، فإنهم بذلك يزدادون إيمانا ويقين. وهذا كسب كبير للنصوص الدينية فى عصر يفيض بالشكوك ويمتلئ بالإلحاد. على أن هؤلاء الملاحده المتشككين لن يجدوا حجة يستطيلون بها على المؤمنين إذا وجدوا الحقائق العلميه تؤيد ما يتشككون فيه من هدى كريم. فتخرس ألسنتهم أمام حججه الساطعة وقد يهتدون.

ب ـ الفريق الثانى : المانعون للتفسير العلمى

لقد كان هذا الفريق من العلماء فى مقاومه الفريق الأول فهو قديم حديث أيضا، وكان على رأسه قديما الإمام الشاطبى رحمه الله. وفى الحديث كان الشيخ رشيد رضا والشيخ شلتوت إلى غير هؤلاء.

وقد منع هؤلاء من التفسير العلمى للقرآن. وقالوا: إن القرآن قد خاطب العرب أول من خاطب من الناس. وهم قوم أميون لا يحتاجون فى فهم النصوص الصريحه إلى التغلغل فى العلوم الكونيه، والرياضيات.

وقد واجههم القرآن بما فى مقدورهم أن يستوعبوه من الكلام. فأدى رسالته معهم على

أحسن وجه يتاح. إذْ فهموا مبادئه ودرسوا شرائعه دون أن تكون بهم حاجة إلى نظريات علمية أو فلسفة كونية.

فعلى المفسرين أن يفهموا من القرآن ما فهمه العرب الأوائل. إذ أن كتاب الله لسان هداية، ومنار توجيه، أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور لا ليتحدث عن أسرار الرعد والبرق والمطر والرياح، ولا ليحدد مواضع الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال.

ثم إن النظريات العلمية فى الكون لا تستقر على حال. فقد تثبت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمرا بدهيا لا يجوز فيه الاختلاف.

ثم يدور الزمان فيحدث من النظريات ما يقلب الأول رأسا على عقب. فإذا فسرنا القرآن بمقتضى النظر العلمى فإننا نجعله ميدانا للتأويل المتناقض المضطرب. حتى ليجوز أن نتّخذ من الآية الواحدة دليلا للإثبات فى زمن، وللنفى فى زمن آخر. ومثل ذلك عبث بالغ يجب أن يتنزه عنه كتاب الله.

ومما يجعل الآذان تصغى لحجج هذا الفريق من العلماء، أن أناسا ممن لا يجمعون بين النظر الصائب والعلم الصحيح قد دفعهم حب الابتكار إلى تفسير بعض آيات القرآن تفسيرا بدائيا، لا يستند إلى دليل. فحين يظهر مكتشف ما من المكتشفات يسارع هؤلاء السطحيون فيقتطفون من كتاب الله ما يوهم صاحب النظرة السطحية أنه يسير مع المكتشف العلمى الحديث، ويدّعون أن كتاب الله قد ألقى إليهم بأسراره. فنجد أحدهم يتحدث عن التصوير الشمسى، فيستدل عليه

بقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾»(٣٣).

أو يتحدث عن القمر الصناعى فيستدل بقوله سبحانه: (اقتربت الساعة وانشق القمر) أو يشير إلى تحطيم الذرة فيقرأ قول الله تعالى:

---

(٣٣) الفرقان ـ الآية ٤٥

« وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ »[٣٤].

أو يتحدث عن التسجيل الهوائى للأصوات فيستشهد بآية

« وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ »[٣٥]

إلى غير ذلك وهو كثير.

وقد كتب الشيخ محمود شلتوت رحمه الله ردا مسهبا فنّد فيه ما ذهب إليه هؤلاء وقال فى ختام حديثه:

فلندع للقرآن عظمته وجلاله ـ ولنخلع عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحثّ على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم. وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول[٣٦].

وقد رد الإمام الشاطبى الاستدلال بقوله تعالى: «ما فرّطنا فى الكتاب من شئ» وقوله تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ» الخ فقال: «فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين، ما يتعلق بحال التكليف والتعبد. أو المراد بالكتاب فى قوله: «ما فرطنا فى الكتاب من شيء» اللوح المحفوظ . ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

ورد أيضا ما روى عن بعض السلف كعلىّ وغيره فى هذا المجال، فقال: وما ينقل عن علي أو غيره فى هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه. ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف إلى العرب خاصة فَبِهِ يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية. فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضلّ عن فهمه وتقوّل على الله ورسوله فيه[٣٧].

---

(٣٤) النمل ـ الآية ٨٨

(٣٥) الإسراء ـ الآية ١٣

(٣٦) مجلة الرسالة ـ العدد ٤٠٨

(٣٧) انظر : الموافقات للشاطبى ـ جـ ٢ ص ٨١ وما بعدها

جـ ـ الفريق الثالث : وهم أصحاب الرأى الوسط فى هذه القضية، ويؤيدون الفريق المانع إذا كان التفسير قائما على الظن الوهمى أو التعسف التأويلى.

أما إذا كان مستندا إلى الصريح من القول، معتمدا على اليقين الثابت من العلم، فلا يمنعون من الاستضاءة بشعاع العلم فى إيضاح حقائق الذكر الحكيم، وقالوا: إذا كان القرآن كتاب هداية وإرشاد فإن آياته العلمية لا تحول دون هذه الهداية المبتغاة، بل تؤكدها وتدعو إليها الجاحدين.

أما أن القرآن نزل فى أمة أمية لا تعرف النظر العلمى، فقول مردود بأن القرآن لم ينزل لأمة واحدة أو قرن واحد. بل لجميع الأمم فى شتى القرون. ليأخذ كل جيل من هديه ما يناسب استعداده الذهنى والنفسى.

وأما تناقض العلم واضطرابه فلا خوف منه. لأننا لن نأخذ بغير اليقين الثابت مما صححته الأجيال المتعاقبة. ولنا فى الأخذ بالعلم قيود قوية.

من ذلك : ما ذكره الأستاذ محمد أحمد الغمراوى فى مجله الرسالة مرارا حيث يقول: يجب أن ننبه إلى أمرين هامين:

الأول : أنه لا ينبغى فى فهم القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز، إلا إذا كانت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه،لأن مخالفة هذه القاعدة الأصلية قد أدت إلى كثير من الخلط فى التفسير. **أما الأمر الثانى**: فهو أنه ينبغى ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم. لا بالنظريات ولا بالفروض،لأن الحقائق هى سبيل التفسير الحق. هى كلمات الله الكونية. ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية. أما الحدسيات والظنيات فهى عرضة للتصحيح والتعديل إن لم يكن للإبطال فى أى وقت[٣٨].

وأضاف الشيخ المراغى قيدا **ثالثا** فقال: ويجب ألا نجر الآيه إلى العلوم كى نفسرها ولا العلوم إلى الآيه كذلك. ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علميه ثابته فسرناه بها[٣٩].

---

(٣٨) انظر مجلة الرسالة الأعداد ٥ ، ٧ ، ١٤٦

(٣٩) مجلة الأزهر المجلد السادس ص ٦٣٥

وعلى هذه الأسس قطع لفيف من العلماء شوطا فى هذا الطريق. وحاولوا تفسير بعض الآيات القرآنية بالطرق العلمية.

وإذا كانت بعض الكونيات لا تزال فى دور التطبيق، فإن أكثر الآيات الطبية قد وجدت من العلم نصيرا مجندا، فأصبح من الإعجاز للقرآن أن نقرأ:

« وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ »(٤٠)

«وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ »(٤١).

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ »(٤٢)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ »(٤٣)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ

---

(٤٠) البقرة ـ الآية ٢٢٨

(٤١) البقرة الآية ٢٣٣

(٤٢) الطارق الآيات ٥ ـ ٧

(٤٣) البقرة الآية ٢٢٢

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ »(٤٤)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ »(٤٥).

د ـ وهذا الاتجاه بالقيود المذكورة اتجاه وجيه يكشف عن سر من أسرار القرآن، وعن وجه من وجوه إعجازه، ينفع فى اعجاز العرب والعجم جميعا. ويثبت حقية القرآن، وخلود الإسلام.

وها هو العالم الغربى يقترب من الحق، ويوشك أن يصل إلى حقيقة دعوة القرآن، فقد حرمت بعض الدول هناك شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، لما فى ذلك من الأضرار البالغة بالعقل والجسم الإنسانى، كما وضح الإسلام.

واعترفت دول كثيرة منهم بعظمة فرضية الصيام، والغسل من الجنابة، وبمنهج الإسلام فى الزواج والطلاق. وقد وقع فى إيطاليا من مدة وجيزة استفتاء على الطلاق وتعدد الزوجات وهما من المحرمات فى دينهم. وجاءت النتيجة بالموافقة الساحقة على الأمرين معا؛ لما فى ذلك من منافع اجتماعية عظيمة. وأيم الله لو أنهم وقفوا على حقيقة مشروعية الأمرين كما فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنى لعلى يقين أنهم سيعترفون بأن هذا التشريع النافع ما هو إلا من عند الله، وصَدَق مبلّغه.

والأعداد المتزايدة من الداخلين فى الإسلام كل يوم على قلة الدعاة لهذا الدين العظيم بينهم خير شاهد على ذلك.

والله الموفق .

---

(٤٤) المائدة الآية ٣

(٤٥) المائدة الآية ٩٠